المورد
مجلة تراثية فصلية محكمة

عمود الشعر عند ابي تمام

بمجيد محمود مطلب

سئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام فقال (كان اغوص على المعاني وانا أقوم بعمود الشعر)(١).

وقال عنه الآمدي في موازنته مع البحتري (ان شعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا هو على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة بينما يرى في البحتري (شاعر عربي مطبوع وعلى مذهب الاوائل ما فارق عمود الشعر قط وكان يتجنب التعقيد ومستكره الالفاظ ووحشي الكلام)(٢) ..

وقال احمد امين في معرض تقديمه لاخبار ابي تمام (وشاء القدر ان يعاصره البحتري وهو قريب المعنى حسن الاسلوب لا يغرب اغراب ابي تمام ولا يبعد عن عمود الشعر بعد أبي تمام)(٣) .

فما هو العمود الشعري العربي وما هي ابعاده وتحديداته ؟ لا اشك ان الشعر العربي نشأ نشاة جاهلية وفي بيئة بدوية جافة ولا أشك ان ما وصلنا من شعرهم كان في قمة اصالته ومجده وتطوره ،اذ ليس من المعقول ولا من المنطق السديد ان تكون هذه المعلقات الطوال والتي لا تخلو من صناعة معقدة ومن تصوير جميل وخيال مستظرف اول عهدهم بالشعر ، ولست هنا بصدد اثبات ان اصل الشعر نشأ اول امره مرسلا ثم مسجعا ومنه تطور الى الرجز فالقصيد ، لاني لا اريد ان ابحث في ارومة الشعر وجذوره الاولى ، ولكني اريد ان اصل الى ان الشعر الجاهلي والذي يعتبر اساس الشعر العربي ، مر بمراحل ، تطور فيها حتى وصلنا بحلته القشيبة متمثلا بالمعلقات [والتي اجمل خصائصها فيما يأتي : ـ

انها ـ كما هو معروف ـ قصائد طويلة تتالف الواحدة منها من اغراض متعددة ، واحد منها مقصود لذاته ـ وربما احتوت على غرضين مقصودين ـ والاخرى ممهدة تأتي قبل الغرض المقصود وبعده ، وتبدأ المعلقة ـ كما هو معروف ايضا ـ بالوقفة الطللية ثم بالانتقال الى وصف الراحلة والطريق التي سلكتها ، بعدها ينتقل الى غرض اخر من الغزل او الفخر او الخمرة قبل انتقاله الى الغرض الاساس الذي نظم القصيدة او المعلقة من اجله .]

ولقد حرص الشعراء القدامى على ان تكون معانيهم شريفة يفتخرون بها في العادة مثل الكلام عن النسيب والكرم والوفاء والخمرة ويبتعدون عن المعاني المبتذلة التي تلوكها السنة العامة في احاديثهم اليومية .

وحرصوا ايضا على جزالة الفاظهم فكانوا يتخيرون ما جزل منها وما فخم مع الفصاحة ومتانة التركيب ثم انهم كانوا يحبون في الوصف ان يكون مطابقا للموصوف ، اما تشبيهاتهم فكلها حسية سهلة التناول واضحة بينة الصلة بين المشبه والمشبه به ، والاستعارة بعد ذلك عندهم يشترطون لها ان تكون بارعة وقريبة يدركها العقل بادنى تأمل وهم لا يغفلون بعد ذلك الوزن المناسب والقافية الجميلة ، هذه هي تحديدات وابعاد (عمود الشعر) الذي اشار اليه النقاد ، وتلك طريقة العرب القدامى ، وبهذا العمود كان النقاد في صدر العصر العباسي واواسطه يقيسون اشعار الشعراء ويحكمون على اصيلها وفاسدها ...

---

(١) ديوان ابي تمام تقديم عبدالحميد يونس وعبدالفتاح مصطفى ص ١٧ .

(٢) الموازنة بين الطائيين ـ للآمدي ـ ص ٢ .

(٣) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ تقديم احمد امين ص ٨ .

والمرزوقي في شرحه لحماسة ابي تمام يحددعمود الشعر ويحصره بـ :

١ ـ شرف المعنى وصحته ٢ ـ جزالة اللفظ واستقامته ٣ ـ الاصابة في الوصف ٤ ـ المقاربة في التشبيه ٥ ـ التحام اجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ٦ ـ مناسبة المستعار منه للمستعار له . ٧ ـ مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما فهذه سبعة هي عمود الشعر(٤).

ويفسر الآمدي هذه المباديء السبعة بقوله (وليس الشعر عند اهل العلم به ، الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه)(٥) .

هل هنالك اشد عسفا وتحكما بالشعر والشعراء والفن والفنانين من هذه القوالب الجاهزة والاطر التي يحيطون الشعراء بها ، فبهذه السبعة العجاف يخلد الشاعر او يموت ، لقد توج هؤلاء النقاد المحافظون انفسهم ملوكا على عرش الادب ورفعوا هراواتهم بوجه كل من يخالف نصوصهم وقواعدهم التي لا يأتيها الباطل فهي عندهم خالدة ازلية ومن شذ عنها شذ الى النار . .

فمثلا ، جودة النص عند الآمدي وغيره تأتي بقدر مطابقتها لاقوال العرب القدامى فالقبح ـ عنده ـ لا يعني قبح الصورة انما يعني ـ كما يقول ـ خروج ابي تمام على تقاليد العرب في استخدام الاستعارة اذ هم يستخدمونها (فيما يقارب المشبه او يدانيه او يشبهه في بعض الاحوال او يكون سببا من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه)(٦) .

ونحن كلما تصفحنا كتاب الموازنة بين الطائيين وغيره من كتب النقد القديمة نجدا شباه هذا التحامل والذي هو اقرب للتعصب على ابي تمام منه الى نقده فشعره (لا يشبه اشعار المتقدمين ولا على على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة) ، او لقد زل (عن النهج المعروف والسنن المألوف)(٧) او عدل في شعره عن مذاهب العرب، ولعل اغرب واقسى هذه النقدات ما قاله ابن الاعرابي اللغوي المعروف عن شعر ابي تمام حيث قال (ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل)(٨) اتدرون لماذا ؟ لانه شعر ابي تمام . فقد كان شديد التعصب عليه وكان يكره ان يروى شعره او يذكر اسمه ، ويروى لنا طه حسين في كتابه (من حديث الشعر والنثر) انه وكل الى ابن الاعرابي ان يؤدب ابنا لبعض كبار الكتاب (فجاء هذا الشاب بارجوزة وانشدها بين يدي ابن الاعرابي فاعجب وطلب الى الشاب ان يكتبها فسأله الشاب : أتستجيد هذا الشعر ؟ قال : ما رايت شعرا كهذا . فقال الشاب انه لابي تمام فقال ابن الاعرابي «خرّق خرّق»(٩).

ثم لماذا لا يريد هؤلاء النقاد الذين يهذرون بمثل هذا النقد والذين وضعوا لنا هذه القواعد والقوالب ان يعترفوا بان الشاعر في العصر العباسي هو غيره في العصر الجاهلي والاموي او ما يسمونه عصر الاستشهاد والا فما فائدة الرقي العقلي الذي اصابه الشاعر العباسي في القرن الثالث وما تلاه ان لم يستوعب في شعره حضارة عصره ، ومقومات بيئاته وقديما قيل « الشاعر ابن البيئة »، سيما وان صناعة الشعر العربي في هذا الطور تقدمت وازدهرت واصابها تبدل واسع لان المنابع الاساسية في حياة شعراء العصر امتزجت بها عناصر جديدة من الثقافة والفكر والمجتمع وعاش الناس عيشة حضرية مترفة بعيدة عن رمال الصحراء وهجيرها وحياتها الجافة القاسية ، فنشأ معظم شعراء العصر في الحلية والزينة وانغمسوا في مظاهر الحضارة والترف ، فتغيرت حياتهم وصناعتهم الفنية تغييرا ابدلها من طرازها القديم بطراز آخر « يعتمد على الزخرفة والاناقة »(١٠) .

وتغيرت طريقة عيشهم فهي تقوم في كثير من جوانبها على الترف واللهو والمجون ، فبغداد ومدن العراق الاخرى تكاد تكتظ بحوانيت الخمور ودور اللهو لكثرة الجواري واتساع سوق الرقيق ، وهنا تلمع اسماء اشهر المغنيات الشواعر اللواتي كان لهن الاثر الاكبر في حركة الادب وانماء شعر الغناء واغنائه « فعريب » الشاعرة المغنية و« دنانير » جارية البرامكة وشاعرتهم والتي كانت احسن الناس ادبا واكثرهم رواية للغناء

(٤) مقدمة شرح ديوان الحماسة ـ ج ١ ص ٨ـ١١ .
(٥) الموازنة للآمدي ص ٣٩١ .
(٦) الموازنة للآمدي ص ١٠٧ .
(٧) ديوان الشعر العربي ـ علي احمد سعيد ـ ص ١ .
(٨) اخبار ابي تمام ـ للصولي ص ٢٤٤ .
(٩) انظر الصولي ـ وطه حسين من حديث الشعر والنثر .
(١٠) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ شوقي ضيف ص ٧٠ .

والشعر »(١١) ومنتيم ، وعنان وغيرهن كثير ، هذا وقد اشتهر اكثر الشعراء بجارية يقف عليها اكثر شعره ، فابو نؤاس مثلا اشتهر بجنان ، وابو العتاهية اشتهر بعتبة والعباس بن الاحنف بفوز، وكان مسلم بن الوليد يلقب بصريع الغواني .. ولم يكن ولع الشعراء بالغلمان ـ آفة هذا العصر ـ باقل من ولعهم بالجواري فالذي يقرأ الاغاني واليتيمة وغيرهما يخيل اليه ان هذا الولع كان عاما بين الشعراء وغيرهم هذا وان دور اللهو كانت مليئة باجناس مختلفة فيهم ، وما دمنا في ذكر هذه الحياة اللاهية الماجنة فما علينا الا ان نتذكر الاديار ونصيبها في انعاش ذلك ويكفي ان نذكر ان الشعر الذي ترك في وصف الاديرة وحاناتها وقساوستها وغلمانها ليؤلف موضوعا هاما من موضوعات الشعر العربي(١٢) .

ولئن كان ما قدمته محدود الاثر في تحضر الشاعر العباسي وميله الى الترف والزخرفة في حياته الاجتماعية والفنية وابتعاده عن البداوة لوجود ما يماثل هذه الحياة اللاهية فى المجتمعات السابقة وبخاصة في الحجاز في العصر الاموي ، فاثر الحياة العقلية او الثقافية واضح التاثير على حياة الشعر والشعراء والذي وسم العصر كله بسمة الحضارة والتقدم ...

واذا آن لنا ان نعرف هذه الثقافات واثرها على المجتمع العباسي وجب علينا حصرها بثلاث فالاولى هي العربية والتي تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين والشعر وما يتصل به من العلوم الادبية كالنحو والصرف وعلوم البلاغة وغيرها من علوم اللغة الاخرى ..

والثانية : هي اليونانية والتي كان لها اثر كبير على العقلية العباسية واثرها واضح لا على الادب ومعظم الفنون وانما يظهر ذلك بجلاء على الحياة الفلسفية والعقلية لان ما وصل الى العرب من اليونان انما اقتصر على الفلسفة ولم يتسرب اليهم شيء من الشعر والتاريخ ، وهذه الفلسفة هي التي صبغت عقلية الشعراء والفنانين باصباغ خاصة « من العمق والدقة وطرافة التقسيم والبعد في التفكير والخيال حتى اصبحنا بازاء صفات عقلية جديدة »(١٣) .

والثقافة الثالثة شرقية وهي الفارسية والهندية وغيرهما من الامم السامية التي كانت منتشرة في العراق يومئذ ولم يكن اثر هذه الثقافات واضحا على الادب وضوح الثقافة اليونانية ، لان ما اخذه العرب عن الفرس لا يعدو حياة الترف واللهو ونظم الحكم وسياسة الادارة ، وربما بعض القصص والحكم ، اما اثرهم فى الشعر فضئيل ذلك لانه ليس « للفرس شاعر معروف قبل الاسلام »(١٤) .. وما يقال عن اثر الفارسية يقال عن الهندية اذ ليس للاخيرة تأثير واسع في الادب العربي انما اثرها ينحصر في الطب والرياضيات وعلم الفلك والنجوم ..

ومهما يكن من امر فان الصفات العقلية « لشعراء المدن تغيرت تحت تأثير هذه الثقافات وبخاصة الثقافة اليونانية فلم تعد الصفات العقلية القديمة التي كنا نراها عند زهير وكثير وذي الرمه واضرابهم(١٥) . فقد دخلت في صناعة الشعر صفات عقلية جديدة لعل ذلك يظهر واضحا في شعر بشار وابي نؤاس وابي تمام والمتنبي من ارباب الزخرفة والصناعة الشعرية الذين يوائمون بين اجزاء القصيدة « حتى تأتي فى تناسب صدرها وعجزها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزءمنها عن جزء»(١٦).

وكان للمنطق الذي هو جزء من الفلسفة اليونانية اثر كبير على عقلية الشاعر العباسي في في هذا العصر ونرى اثره واضحا في صناعته خاصة في تمتين العلاقة بين اجزاء الشعر حتى نراها واضحة ووثيقة كما نراها واضحة ووثيقة في اجزاء النثر ، واذا كان بعض الباحثين والنقاد يلاحظون ان النثر الفني المرسل ينشأ متاخرا عن الشعر لما فيه من تعليل عقلي يبعده عن البداوة الساذجة الفطرية لانه « لغة العقل والتفكير والمنطق» فان هذا الفارق يقرب من التلاشي والزوال فى هذا العصر بسبب هيمنة الفلسفة والمنطق اليوناني وما ادخلاه من صفات عقلية جديدة . حتى اننا نجد كثيرا من الباحثين والنقاد ـ قديمهم وحديثهم ـ يغالي غلوا كبيرا في تأثير هذه الثقافات وبخاصة اليونانية منها على الحياة عامة والعقلية خاصة . حتى ان المسيو مرسيه يرى ان الزخرف الفني وصل الى العرب من الفرس ، وقد شايعه في هذا الراي من المعاصرين الدكتور طه حسين ثم ابدل رايه

---

(١١) المصدر السابق ص ٧١ .
(١٢) الديار النصرانية فى الاسلام ـ حبيب زيات ـ ص ٢٢ .
(١٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ـ شوقى ضيف ص ٨٧
(١٤) البيان والتبيين ـ الجاحظ ج ٣/١٦ .
(١٥) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٩٠ .
(١٦) زهر الآداب للحصرى ـ م ٣ ص ١٧ .

بعدئذ فعزا هذا التأثير الى اليونان وكانت الحجة التي اعتمداها في ذلك « ان المولعين بالزخرف اكثرهم من غير العرب من الفرس المستعربين ثم ان طه حسين يقول « ان البلاغة العربية اخذت حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى الشواهد والصور والتعابير »(١٧) .

ومهما يكن في مثل هذه الآراء من مبالغة ومغالاة فاني لا انكر ان العرب تأثروا في حياتهم العقلية والادبية بالفرس واليونان وكان امرا مفروغا منه ان تدخل اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاطلاع على آداب الاخرين والاغتراب والسفر في مختلف الاقطار والامصار .

على هذا الشكل تبدلت حياة الشاعر العربي في العصر العباسي واصيبت بما اصيبت به الحياة العامة من الزخرفة والتجميل والتانق . فتوفر المال والغنى لدى الشعراء وبذخهم في العيش بانماط جديدة من الزينة والحلية الى تانق في الحياة والمظهر والتصاق بالفلسفة الاجنبية والمنطق كل ذلك جعل حياة الشعراء الفنية عرضة للصناعة والزخرفة وهي حال طبيعية توجد في الصنائع كلما وجدت الحضارة وما يصحبها من ترف وتصنيع يقول ابن خلدون في مقدمته « وعلى مقدار عمران البلدان تكون جودة الصنائع للتانق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها ، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة »(١٨) .

هذا وقد « أهّل ما شاع من تصنيع وزخرف في الحياة الاجتماعية اثناء العصر العباسي لقيام هذا المذهب الحديث في الشعر العربي ـ مذهب التصنيع ـ »(١٩) . وربما اعتبر هذا المذهب مقياسا لحذق الشاعر ومهارته وجودة فنه ، ولو انه لم ينشأ هكذا فجاة بل اجتاز سلالم كثيرة في عملية نشأته وارتقائه ، . .

فمن البديهيات المسلم بها ان قول الشعر ليس عملا يسيرا بل يمر النظم خلال تجربة معقدة وعامل شاق غاية في التعقيد ، هو صناعة تجتمع لها في كل لغة طائفة من المصطلحات والتقاليد ، ومعروف ان لفظ شاعر عند اليونان القدامى تعني (الصانع) وهي في لغتنا قريبة الى المعنى اليوناني فهي تعني (العالم) والشعر(٢٠) معناه العلم ، وقد ادخله قسم من القدامى في باب الصناعة حيث يروى لنا الجاحظ عن عمر بن الخطاب قال « خير صناعات العرب ابيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته(٢١) .

وكان قدماء العرب يحسون بان الشعر ضرب من الصناعات فقد جعلوه « كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي واشباه ذلك فيه الملون وغير الملون »(٢٢) .

من هذا يظهر ان نظرتهم الى الشعر بانه عمل معقد يقرب من الصناعة قديمة قدم الشعر نفسه وكان ظهورها في الشعرالجاهلي بعد استوائه ونضجه ـ حسب معارفنا ـ عند زهير بن ابي سلمى . فقد اخذ الشاعر يعقد في صناعته ويقيد نفسه ببعض القيود خلا الوزن والقافية كالالفاظ والمعاني والموضوعات وما المعلقات او المطولات السبع القديمة الا دلالة على ان صناعة الشعر استوى لها حينذاك غير قليل من القيود والتقاليد ويمكننا القول ان الصنعة كانت ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي ولكنها ظاهرة بارزة في شعر صاحب الحوليات وتلميذ مدرسة اوس بن حجر ـ فقد كان زهير يأخذ شعره بالتنقيح والتثقيف والصقل يفحصه ويمتحنه ويجرب كل قطعة من قطعة ، وقد لا اغالي اذا قلت انه تزعم المدرسة بعد استاذه وخرج منها تلامذة يؤمنون بصناعته الشعرية قسم منهم من اهل بيته وهم ابناه كعب وبجير وابنته ، ومن غير بيت اهله امثال الحطيئة المخضرم وكثير وذي الرمة من الاسلاميين ، ومن ابرز صفات هذه المدرسة كما هو مشهور اعتمادها على الاناة والروية ومقاومة الطبع والاندفاع في قول الشعر مع السجية ،، فكثر عندها المجاز والاستعارة والتشبيه واتكأت في وصفها على التصوير المادي وان يأخذالشاعر نفسه بالتجويد والتصفيةوالتنقيح والتاليف »(٢٣) .

واذا تركنا زهيرا والعصر الجاهلي الى صدر الاسلام والعصر الاموي وجدنا مظاهر الصناعة والتكلف التي قابلتنا في العصر الجاهلي تنمو مع الحياة العربية غير ان هذا النمو لم يؤهل بظهور مذاهب جديدة في الشعر العربي ، فظلت الصورة القديمة مع بعض التعديلات والتغيرات

---

(١٧) النثر الفني في القرن الرابع ـ زكي مبارك ج ١ ص ٤٤ . ونقد النثر الفني ـ طه حسين ـ ص ١٤ .
(١٨) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨١ .
(١٩) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٩٧ .
(٢٠) تراجع مادة « شعر » في لسان العرب .
(٢١) البيان والتبيين ص ٨٦ .
(٢٢) البيان والتبيين ص ١٥٨ .
(٢٣) يراجع كتاب الادب الجاهلي ـ طه حسين ـ مدرسة اوس بن حجر .

التي جعلت من بعض صناع الشعر يبالغون في الاهتمام بحرفتهم ويوفرون لهاكل ما يمكن من تجويد وتحبير يقول ذو الرمة .

وشعر قد ارقت له طـــريف
اجنبـــه المساند والمحالا

وربما كان كثير خير تلميذ لمدرسة زهير فقد كان يصور لنا نمو مذهب الصنعة اذ نراه يضيـق على نفسه الممرات التي يسلكها الى شعـــره كما صنع في قصيدته :

خليليَّ هذا رسم عزة فاعقـلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

فقد التزم اللام المشددة في القصيدة كلهـا وبذلك كان من اوائل من وضعوا اسس الطريقـة التي طبقها ابو العلاء المعري في لزومياته فيمـــا بعـد ..

ونحن اذ نتعرض لصناعة كثير الشعرية لا يعني هذا ان العصر كان عقيما لم ينجب غيره بـل هناك كثيرون غيره فالنقاد والباحثون يروون لنا على سبيل المثال عن الفرزدق انه كان ينحت مـــن صخـر وعـن جريـر الذي يغـرف مـن بحـر ، ولو كنا بصدد دراسة تفصيلية عـن اصحـــاب هذه الصنعة في كل عصر لاطلنا في تعـدادهم ولكننا نريد ان نعرض تطور الشعر وصناعته منذ اول شيء وصلنا منه وحتى عصر ابي تمام .

لذا تراني اخلف ورائي العصر الامـــوي ولا اجرأ علـى القـول بان مذهبـا في التصنيـع قد كملت ابعاده فيه وانما اقول ان الخط البياني الذي رسمناه لتطور الشعر ظل مرتفعا في هـــذا العصر ولكنه يبقى مرتبط الجذور مع ارومة العصر الجاهلي ..

وما ان يحل عصر النهضة عصر الحضـــارة العربية الاسلامية ونضجها ، عصر المعرفة المتنوعة والثقافات المختلفة حتى يصبح الشعر فنا اي ان الشاعر لم يعد معبرا وحسب بل يعرف كيف يعبر ولم يعد الشاعر يقبل كل مـا يناجيـــه بـــه طبعه ...

« سئل بشار بن برد مرة بم فقت اهـــل عصرك وسبقت ابناء عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب الفـاظه ؟ فقـال لانـي لم اقبـل كـل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري ، ونظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات ، فسرت اليها بفهم جيـــد وغريزة قوية ، كشفت عن حقائقها واحترزت عن متكلفها »(٢٤) . ماذا يعني هذا ؟ يعني ان بشـارا اخذ يتشكك في ازلية وثبات مفهوم الطريقة الشعرية القديم المتوارث ويزعزع اركانه ، ويعني انه فتح آفاقا جديدة للشعر العربي وانار الـــدرب لمـن جاء بعده من المجددين .

لذا نرى ان بعض النقاد يفطن الى اهميـــة بشار وخطره فيجعله « قائد المحـــدثين » وراس طبقه الشعراء المولدين ..

ولئن التفت هؤلاء النقاد الى مكانتـــــه وشاعريته فانهم ـ فيما احسب ـ لم يشـــيروا حول طريقته خصومة ونزاعا ربما لانهم لم يلتفتوا الى ما جاء به من صناعة وبديع وتوليد واغـراب في التصوير اي التشبيهات التي لم تكن محببـــة ومألوفة لدى الاقدمين وربما لان تجديده لم يكـن بيّناً طاغيا على طريقته في الشعر طغيان فحشـه ومجونه وتبذله ،

ومهما يكن من امر فهو عندي اول من خط الدرب ووضع اللبنة الاولى في الاساس الجديد ، اساس الصنعة والبديع واول من ضرب بمعولـه القديم ضربة موجعة فهد ركنا من اركانه والتـي بدت اليوم متداعية سرعان ما انهارت كلهـــا او معظمها بظهور ابي نواس ومسلم بن الوليد وابـي تمام والبحتري ..

ويحدثنا الجاحظ عـن بشار ، وهـــو في معرض حديثه عن وسائل التصنيـع ، يذكـر البديع ويشيد باصحابه من الشعراء امثـــال ابن هرمة والعتابي والراعي ، فيكبر مكانته في هذا المجال ويقدمه عليهم « ولم يكن في المولدين اصوب بديعا من بشار وابن هرمة »(٢٥) .

وكان راس الصناعيين واول المتفننين الذيـن يقصدون البديع قصدا ويطلبونه طلبا حتى فضله الاصمعي ـ وهو من غلاة المتعصبين للقديم ـ على مروان بن ابي حفصة ، ويشير الى اســـتعماله للجديد واكثاره من الصنعة البديعية « لان مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمـه وشركه فيه مـن كان في عصـره وبشـار سلـك طريقا لم يسلك واحسن فيه وتفرد به وهو اكثر تصرفا ، وفنون شعره اغزر واوسع بديعا ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل » .

ظهرت اذن مدرسة بيانية جديدة شيخهـــا بشار ومن رجالها ابن هرمة والعتـابي ومنصـور

---

(٢٤) العمدة لابن رشيق ـ ج ٢ ص ٢٣٩ .
(٢٥) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ج ١ ص ٥٥ .

النمري ، وربما كان اثر التجديد فيها ضئيلا ذلك لان زعيمها « بشار » حلقة وصل بين عصرين، عصر ينزع الى الحفاظ على التراث والتقاليد وعصر تتصارع فيه شتى انواع الثقافات والعلوم المنقولة والموضوعة ، والتي تدعو كلها الى تجديد القيم والثورة على كل بال وقديم ، ولكن الصيحة التي اطلقتها هذه المدرسة البديعية صار لها صدى عميق ظل يردده الزمن حتى مس برفق اذن ابي نواس ، فتلقفه واخذه بالدربة والمران حتى غدا زعيما للمجددين دون منازع لانه كان نظير بشار مدفوعا بذلك بحكم ما اجتمع له من العوامل الخارجية والذاتية ، فهو يؤمن – عن وعي وادراك – ان الشعر يجب ان يكون مظهرا للحياة وصورة للمجتمع ، وان على الشعراء ان يعيشوا في الحاضر لا في الماضي ، في الواقع لا في الذكريات وان يصوروا ما هم فيه لا ما يمدهم به الخيال فلا هند ولا سلمى ولا نجد ولا الاراك ولا تلك الاسماء والمواقع التي تواضع عليها الجاهليون والاسلاميون:

لا تبك ليلى ، ولا تطرب الى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد

وهنا مال ابو نواس الى اوضح الاشياء وابينها في حياته الحضرية فاستمد منها ديباجته الشعرية، الخمرة ، ومجالس الشرب ، والندامى . فخلق بذلك ديباجة حضرية لا تمت بادنى صلة للصحراء او البادية ، فهي لا تحن الى حبيب موهوم ولا تبكي على طلل مزعوم ..

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء

او قوله :

ودار ندامى عطلوها وادلجوا
بها اثر منهم جديد ودارس

فثار ابو نواس – اذن – على الطريقة القديمة طريقة الوقوف على الطلول وقطع المفاوز وتجشم الاهوال توصلا الى مدح المقصود ، فحياته قد تغير وجهها ، لان العرب هجروا باديتهم وتحضروا ، فالعودة الى البادية ورمالها واطلالها والبكاء عليها ضلال ما بعده ضلال .. فتهكم مر التهكم على اولئك الذين يقلدون القدامى في ديباجتهم الشعرية فيقول :

عاج الشقي على رسم يسائله
وعجت اسأل عن خمارة البلد

وقوله :

صفة الطلول بلاغة الفدم
فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر ، واخذ عليه ان يذكرها في شعره قال :

اعر شعرك الاطلال والمنزل القفرا
فقد طالما ازرى به نعتك الخمرا
دعاني الى نعت الطلول مسلط
تضيق ذراعي ان ارد له امرا
فسمعا امير المؤمنين وطاعة
وان كنت قد جشمتني مركبا وعرا

فجاهر بان وصفه الاطلال والقفر انما هو من خشية الخليفة والا فهو عنده فراغ وجهل ..

هذا بالاضافة الى انه كان ينكر على الشعراء تحدثهم عن اشياء لم يألفوها ولم يروها فكيف يصح للشاعر ان يتبع طريقة غيره في وصف ما رآه ليصفه بدوره وهو لم يره :

تصف الطلول على السماع بها
افذو العيان كانت في الفهم ؟
واذا وصفت الشيء متبعا
لم تخل من زلل ومن فهم

ونحن هنا لا نريد ان نقر لابي نواس ان الشعر حتى يكون صادقا ينبغي أن يمر عبر التجربة الشعورية الذاتية المباشرة ، اي انك لا تجيد وصف الشوق حتى تكابده ووصف الخمرة الا اذا شربتها ، وبالتالي لا تجيد الوقوف على الاطلال والبكاء عليها الا اذا رايتها ومررت بها ، ابو نؤاس هنا يبدو ضيق الافق على خلاف ما عرفناه موهوبا نافذ البصيرة. لانه ينكر على الشاعر موهبته وقابلياته على الخلق والتصوير والابداع ، لان الشاعر يعيش في عالم واسع رحيب ينتقل باحساساته ومشاعره خلاله الى اي موضوع والا وجب على الشاعر ان يعيش ما لا حد له من التجارب التي لا تتسع لها الحياة ، فدعوة ابي نواس – اذن – من الناحية الفنية لم تكن ضرورة حتمية ولكننا نتفق واياه على ان الشعر مرآة للحياة وصورة منعكسة عنها وبهذا فهو يدعو الى التجديد لا من ناحية الصياغة والسبك بل ومن ناحية المعاني ايضا، فلقد ابتكر لنا معاني وصورا يعد فيها فارس حلبة ، فوصف لنا الخمرة وصفا كاد يحببها الى نفوس الزهاد وجود القول في الغزل الغلماني حتى طغى على الغزل الطبيعي وجعله بابا مستقلا وغرضا

قائما بنفسه فسن بدعة شعرية لم يخلص الشعراء منها الى اليوم .

ولئن نجح ابو نواس فى ثورته على القديم بتسليطه الضوء على الديباجة الطللية القديمة وشكك الناس بازليتها وخلودها ، ولئن نجح في ابتكار وتوليد المعاني الجديدة في اغراضه الماجنة ، فاننا نراه يزوغ عن هذه الطريقة وهو في حضرة خليفة او امير فنجده يسلك مسلك القدامى واهل الجد ، يقرع الآذان بالتعبير الفني واللفظ المهذب الرصين وربما استهل شعره على طريقة الجاهليين ، لانه يعلم ان الرشيد ـ مثلا ـ سوف ينفر منه ان احس خروجا على التقاليد الموروثة ويعلم ان سلوكه هذا قد يدخله السجن، لذا نراه يشتمل بشملة الاعراب حين يمدحه ترضية له وضمانا لنواله :

حيّ الديار اذا الزمان زمان
واذا الشباك لنا حرى ومعان
يا حبذا سفوان من متربع
ولربما جمع الهوى سفوان

اما مع خلانه وانداده ومريديه فهو يعود الى سيرته الاولى فلا تزمت ولا وقار يبدأ القول بالخمرة وبذم الاطلال يتعهر ويفحش ما طاب له ذلك :

هذه احدى مدائحه للفضل « بن الربيع » وزير الرشيد :

يا ربع شغلك اني عنك في شغل
لا ناقتي فيك لو تدري ولا جملي
عليّ عين واذن من مذكرة
موصولة بهوى اللوطي والغزل
كلاهما نحوها سام بهمته
على اختلافهما فى موضع العمل
يا فضل غاية خلق الله كلهم
اذا ضربنا بجود غاية المثل

وعلى الرغم من ان ابا نواس كان ثائرا على القديم ومجددا لطريقة النظم ـ مبنى ومعنى، شكلا ومضمونا ـ فانه ظل بعيدا عن اضواء النقاد القدامى فلم تثر طريقته خصومة ونزاعا ولم يحتدم حولها النقاش احتدامه مع مذهب ابي أبي تمام من بعده ويرجع ذلك عندي الى جملة عوامل مجتمعة فيها ان تجديده لم يكن بعيد المدى « فهو في ذلك شخصية ذات وجهين » فكان نصيبه الاهمال او ربما بسبب كون النقد لا زال بدائيا لم توضع له اصول ولم تؤلف حوله الكتب وربما ـ ثانيا ـ لانه كان يجيد اللغة العربية ويحذق النظم بها فجاء شعره عربيا اصيلا لم يخرج فيه ـ برايهم ـ عن عمود الشعر ولعل في هذه العوامل ما يساعد على تفسير هذه الظاهرة ..

واذا ظلت طريقة ابي نواس غير متكاملة ولم تتخذ شكل مذهب مستقل يثير الجدل والخصومة الا انه وبشار كانا شرارات اضاءت الطريق لاصحاب الصنعة والبديع امثال مسلم ابن الوليد وتلميذه ابي تمام .

لقد غير بشار وابو نواس كثيرا من معاني وافكار الشعر حتى قال ابن رشيق في عمدته « انهم اتوا بمعان ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا ولا مخضرم ولا اسلامي »(٢٦) . وأبو نواس عرفنا عنه سابقا انه جدد كثيرا من معاني الخمرة وما اليها حتى قالوا « ما زالت المعاني مكنوزة في الارض حتى جاء ابو نواس فاستخرجها او كانت المعاني مدفونة حتى اثارها ابو نواس »(٢٧) ... بينما نجد ان مسلم بن الوليد لم يوجه عنايته للمعاني بل وجهها نحو الصنعة « فلا نجد عنده تجديدا فى المعاني ولا ابتكارا في الموضوعات فطرافته كلها تقف عند التصنيع وما يأتي به من زخرف انيق ووشي بديع »(٢٨) .

هذا وان الباحثين والنقاد القدامى في اضطراب بشأن صناعة ابي الوليد صريع الغواني فمنهم من يجعله خالقا محدثا لهذا الفن ولم يسبقه اليه احد ويذهب فريق اخر الى انه تتبع هذا الفن فجمعه فكان له فضل الجمع والتاليف بينما يرى ثالث انه اول من تكلف البديع وجعله صناعة ثقيلة ، فصاحب معاهد التنصيص يزعم انه « اول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو الذي لقب هذا الجنس بـ (البديع) و (اللطيف) وتبعه فيه جماعة اشهرهم ابو تمام الطائي »(٢٩) . بينما الآمدي ينفي عنه هذا السبق في استعمال البديع ، كل ما في الامر عنده،

انه اطلع على هذه الانواع « الاستعارة والطباق والتجنيس في القرآن واشعار المتقدمين فتتبعها واكثر النظم فيها واعتدها ووشح شعره بها ووضعها في موضعها ثم لم يسلم مع ذلك من

---

(٢٦) العمدة ـ ابن رشيق ـ ج ٢/ص٢٣٦ .
(٢٧) اخبار ابى نؤاس ـ ص ٦٤ .
(٢٨) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٠٣ .
(٢٩) معاهد التنصيص ج ١/ ٢٠ .

الطعن حتى قيل انه اول من أفسد الشعر »(٣٠) اما ابن رشيق في العمدة فيقول « انه اول من تكلف البديع من المولدين واخذ نفسه بالصنعة واكثر منها ولم يكن في الاشعار المحدثة قبل مسلم (صريع الغواني) الا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين كان يبطيء في صنعته ويجيدها»(٣١). اما ابن المعتز في كتاب البديع فيذهب الى ان مسلم بن الوليد كان اول من وسع البديع لان بشار بن برد اول من جاء به ، فحشا مسلم به شعره .

وايا كان راي النقاد والباحثين القدامى في الصناعة البديعية في شعر مسلم بن الوليد فانهم مجمعون على انه اول المحدثين اغرق شعره في هذه الصناعة واتخذ من انواع البديع مذهبا وطريقة له فزخرف شعره ووشاه بضروب من الجناس والطباق والاستعارة والمشاكلة(٣٢) ، وعمم تلك المحسنات على معظم قصائده فعد بذلك زعيم التصنيع والذي عمت موجته من بعده فاصبح زي العصر وسمته البارزة ، تقاس به مهارة الشعراء ودرجة حذقهم وبراعتهم . ولعل خير دليل على ما نذهب اليه هو ما يحدثنا به الرواة من ان مسلم بن الوليد لم يسمح لتلميذه دعبل الخزاعي ان يخرج للناس بشعره وينشره فيهم الا بعد ان سمع منه القصيدة التي يقول فيها :

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

وفي البيت من المحسنات البديعية ما يرضى ذوق مسلم ...

لقد فشت ـ اذن ـ وذاعت رغبة شاملة بين الشعراء في التجديد ، وصار كل شاعر حريصا على ان يدخل ما حصل عليه من ثقافات جديدة وعلوم مترجمة حديثة على شعره فاصطبغ الشعر بالعقليات الفلسفية وبخاصة اليونانية فظهرت الصنعة الشعرية واضحة جلية واخذ الشعراء يتسابقون الى تفخيم الاسلوب وتنميقه وتلوينه بشتى ضروب المحسنات اللفظية منها والمعنوية ، فبعد ان كان الشاعر القديم يأتي بالشعر عن انقياد فطري لا يلجأ الى المحسنات الا عفوا ، غدا الشاعر هنا يجانس ويطابق ويغوص على المعاني الغريبة يولد فيها فيكثر من الاغراب والابتكار ، وهو في ذلك كله يعي كل كلمة يضعها في قصيدته ويعرف كيف ينظم ابياتها ويعلم بطرق البيان التي ينبغي عليه انتهاجها لتجويد الفاظه ومعانيه ، وكان هذا داب كل شاعر صغيرا كان ام كبيرا ..

ولعل اهم شاعر يمثل مذهب التصنيع في هذا العصر هو ابو تمام ، لانه انتهى عنده الى الغاية التي كان الشعراء العباسيون يرنون اليها لما جاء فيه من زخرف وتنميق وتوشية .

نشأ ابو تمام في خضم الثورة على القديم وسط بيئة حضرية تزخر بالوان شتى من المعارف والعلوم والثقافات الاجنبية والتي جئنا على ابرز خصائصها فيما فات من بحثنا ، نشأ مغمورا فالرواة مختلفون في اصله فمنهم من يذهب الى انه من طيء صليبة وان نسبته ليست نسبة ولاء او ادعاء ويقدم هذا الفريق حججه وبراهينه(٣٣) . بينما ينكر الآمدي هذا الزعم فيقول ان نسبته الى طيء لفقت له تلفيقا ويؤيد هذا الراي من المعاصرين طه حسين وعمر فروخ .

وكما اختلف المؤرخون في نسبه اختلفوا في تعيين سنة ولادته ووفاته وذهب قسم منهم الى انه نصراني يستدلون على ذلك من ان (اوس) محرفة من (تدوس) او (تيودوسيوس) ، ولكنهم مجمعون على انه نشأ من عائلة فقيرة كان عميدها يشتغل عطارا او خمارا بينما اشتغل هو حائكا في دمشق انتقل بعدها الى مصر فاخذ يسقي الناس في جامع مصر ويستقي هو ما تيسر له من علوم عصره ، وهنا ظهرت مواهبه الفذة التي لم تتيسر لشاعر من معاصريه ، فذكاؤه الحاد النادر وحافظته القوية وسرعة بديهته صفات اسهب في وصفها الرواة والمؤرخون فالكندي الفيلسوف يسمعه ينشد بعض قصائده فيقول « هذا الفتى يموت قريبا لان ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف أنصقيل غمده»(٣٤) . وفي رواية اخرى انه قال « هذا الفتى يموت شابا ، فقيل له ومن اين حكمت عليه بذلك ، فقال رأيت من الحدة والذكاء والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت ان النفس الروحانية تأكل

(٣٠) الموازنة للآمدي ـ ص ٨ .
(٣١) العمدة ج ١ ص ١١٠ .
(٣٢) المشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته كقول احدهم :
قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه
قلت اطبخوا لي جبة وقميصا
فعبروا عن الخياطة بالطبخ لوقوعها في صحبته .

(٣٣) يذهب العوفي والاصفهاني هذا المذهب من الاقدمين ويشايعهم البهبيتي من المعاصرين .
(٣٤) هبة الايام فيما يتعلق بابي تمام ص ٢٦ .

جسده كما يأكل السيف غمده »(٣٥) . وهناك اسطورة تزعم ان الدم ظهر في عينيه من شدة التفكير فتنبأ له الناس بالموت المبكر . .

ويروون لنا قصته مع الفيلسوف يعقوب الكندي حينما مدح احمد بن المعتصم بسينيته المشهورة :

اقدام عمر في سماحة حاتم
في حلم احنف في ذكاء اياس

فقال له الكندي (الامير فوق من ذكرت) :

فانشد ابو تمام على الفور :

لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ولما اتم القصيدة واخذت منه لم يجدوا فيها البيتين دلالة على انه ارتجلها بعد اعتراض الكندي .

ويحدثوننا عن حافظته القوية بانه كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة للعرب غير المقاطيع والقصائد وهو في حفظه هذا كان كثير النظر والتدقيق في الشعر ميالا الى الاختيار منه ـ مما جعل كثيرا من النقاد يتهمونه بالسرقة ـ فلم يكن يحفظ الشعر ويكتفي بالرواية وانما كان يعاشر الشعراء معاشرة متصلة يقرؤهم ويطيل النظر فيهم ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي كان يختاره من كتب يذيعها بين الناس » .

ثم هو مستوعب للقرآن يدل شعره على انه من حفاظه لانه كان مدمنا مدارسته :

« ايهذا العزيز » قد مسنا الضر
جميعا واهلنا اشتات
ولنا في الرجال (شيخ كبير)
ولدينا (بضاعة مزجاة)
قل طلابها فاضحت خسارا
فتجاراتنا بها ترهات
فاحتسب اجرنا (واوف لنا الكيل)
وصدق فاننا اموات

ثم ثقافة واسعة تصقل ذكاءه وبديهته فهو ـ عند الرواة ـ عالم في كل فن وفي كل علم ، في الفلسفة والتاريخ العربي والاسلامي وفي علم الكلام وعلم النحو حتى انهم لم يأخذوا عليه خطأ في النحو لالمامه في قواعده المعروفة والغريبة ، وهو عند صاحب الموازنة « عالم يعجب شعره اصحاب الفلسفة والمعاني » ثم هو اضافة لذلك كان مثقفا ثقافة فنية واسعة ذا ذوق لا يضاهيه فيه احد من معاصريه مستبحرا في الرواية كما تشهد بذلك مؤلفاته وآثاره الكثيرة التي خلفها خاصة « ديوان الحماسة » الذي اختاره من الشعر القديم والمعاصر .

من هذا الاستعراض المختصر يتضح ان حبيب بن اوس الطائي كان قد استوعب الوان الثقافات المختلفة التي عرفها عصره ولم يقف عند لون معين بل تناول الالوان المختلفة فلسفية كانت ام علمية ام ادبية ، ولقد تناهى اليه الشعر وهو مثقل بضروب من الصناعة والزخرفة والتي كان يتباهى معاصروه بحذقهم لها واسرافهم في استعمالها في شعرهم ، وتهكمهم مر التهكم على كل قديم وبال ، فكيف نريد من شاعر تميز بصفات نادرة وعاش في بيئة نيرة حضرية مثقفة وسط تيار جارف من التجديد ان يقلد غيره ويؤمن بالطرق الجاهزة في النظم بعد كل ما اصابه من رقي عقلي وفني ، نريد منه ان يؤمن بقواعد جعلوها سبعة وقالوا انها عمود الشعر العربي ،

كيف نريد من شاعر هذه صفاته وهو المداحة المتكسب بشعره أن يمدح المأمون والمعتصم والوزراء والكتاب بمثل المعاني التي جاء بها شعراء العصور السابقة ومدحوا بها الملوك والامراء ، ان ما قاله زهير في مدحه لهرم بن سنان والنابغة في مدحه للوك المناذرة والغساسنة وما جاء به الثالوث الاموي في مدحهم لبني امية لم يعد يستسيغه الخليفة العباسي الذي اطلع على الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني .

ثم ان الصفات التي تداولها الاقدمون مثل « كثير الرماد » و « جبان الكلب » و « مهزول الفصيل » لم تعد كتابات مستساغة عن الكرم في المجتمع المدني المتحضر ولا تشبيه الخنساء لاخيها صخر « بانه علم في راسه نار » عاد شيئا موفقا ومقبولا في هذا العصر لان الناس لا يعيشون في صحراء يتيهون في مجاهلها حتى يحسوا برغبة لوجود هذا الجبل المضيء ليهتدوا به .

حتى ابو تمام الذي ظن انه قال شيئا وهو يمدح الامير احمد بن المعتصم لم يوفق في نظر الفيلسوف يعقوب الكندي والذي درس كتب ارسطو وافلاطون فوجد بونا شاسعا بين قول ابي

(٣٥) هبة الايام فيما يتعلق بابي تمام ص ٤٠ .

تمام ومقتضيات وخصائص العصر فقال معترضا وهل زدت على ان شبهت الامير باجلاف العرب اذن ، فلابد ان يلتمس لغة غير التي كانت تقال من قبل ومثلا غير تلك التي عرفت فيما مضى ... واذا كان هذا البيت يلاقي رضى وقبولا حسنا من نفس عبدالملك بن مروان او اشباهه من خلفاء الامويين فهو اليوم يلاقي اعراضا من خلفاء الدولة العباسية . لذا اخذ الشعراء اذ ذاك يلتمسون رضا الذوق العام باساليب شتى فمالوا نحو المبالغة والغلو ، ونحو التشخيص والتسجيم والاغراب في التشبيهات وليس لهم فضل الابداع والاختراع بل انهم وجدوها مبثوثةفي شعرسابقيهم فجمعوها وولدوا منها معاني جديدة ارضاء لممدوحيهم ، اذ لم يترك الشعراء السابقون معنى لم يقولوه ، وما قالوه لم يعد مستساغا في راي ممدوحيهم ، فنضبت المعاني وجف ماؤها فعليهمان يبتكروا ويخترعوا ...

لقد حافظ الشعراء المجددون ـ وابو تمام منهم ـ على تراثهم الشعري وجوهره وظلوا متمسكين بجزء كبير من اصوله وخصائصه وقواعده ، ولكنهم رفضوا ان يعيشوا في معاني غيرهم وان يجتروها فهي عندهم معان سهلة معروفة تتنافى والبيئة الجديدة وتعقيدها ثم هم ليسوا مجبرين على التحدث عن اشياء لم يعرفوها ولم يروها .. فهم شأن كل مبدع في التاريخ رفضوا ان يكرروا الشعر الذي سبقهم ..

رفض ابو تمام الاصول التقليدية الموروثة في الشعر ولكنه ظل محافظا على الروح الاصيلة للشعر العربي لان الشعر عند ابي تمام حركة متطورة وفن متطلع دائما الى امام ـ كأي كائن حي ـ وعلى الشاعر ان يكوّن له طريقة ومذهبا في النظم والتاليف ويرفض الوصفات الجاهزة والطرق الموروثة لانه لا يؤمن بان هناك طريقة ازلية ونهائية خالدة في الشعر . فلماذا يعتبر هذا خروجا على عمود الشعر وان أبا تمام خارج عليه ؟؟ الأنه بدل ديباجة بديباجة اخرى ؟ ام لانه نقل شعر نجد والحجاز الى شواطيء دجلة وقصور بغداد ؟ ، الانه غالى في المعاني وكان العرب يقتصدون وأبعد في الاستعارة وكان العرب يقربونها لمفهومهم وادراكهم ، وزخرف في الصناعة وكان العرب لا يزخرفون ؟ فاذا كان هذا خروجا فعمود الشعر باطل ..

ماذا سيكون موقف اصحاب الاصولية والعمود اذن من المولدين ـ وابي تمام منهم ـ لو انهم استبدلوا اصول الشعر القديم ـ طريقة ومعنىواغراضا ـ باصول غيرها ؟، وماذا سيقولون عنهم لو انهم انصرفوا مثلا عن الديباجة جملة ـ بدوية كانت ام حضرية ـ على عدم اهميتها عندي فهي لا تشكل جزء جوهريا او اصيلا في النظم بدليل عدم استعمالها للرثاء مع انه من اهم اغراض الشعر العربي .

لا ادري ماذا سيكون رايهم في ذلك كله والمحدثون لم يتجراوا على فعله ، كل الذي عملوه هو انهم ارادوا ان يجعلوا الشعر صورة للعصر فجددوا فيه ،، ثم ان اللغويين انصار القدماء والشعراء الذين يحتذون القدماء لم يحاسبوهم على انهم وفقوا او اخفقوا ، ولم يجادلوهم في كيف يكون الشعر صورة للعصر ولم يناقشوهم في اصل من اصول الفن الشعري ،، فيم يتلخص طعن القدماء على المحدثين ؟ في امور ترجع الى الصياغة والى المناحي القديمة التي اخل بها المحدثون ،، وفيم يتخلص طعن المحدثين على القدماء ؟ في ان الشعر يجب ان يصور الحياة التي يحياها الشعراء وان طرق القدماء ومناحيهم لا تنهض الان بهذا التصوير ..

من هم خصومه ؟ وماذا يريد منه هؤلاء المتعصبون ؟.

لم يعرف ادبنا العربي شاعرا اثار جدلا وخصومة تصدر لها ادباء ونقاد لهم وزنهم ومكانتهم ، وحبروا كتبا عديدة ، اغنت مكتبتنا العربية ، كأبي تمام ، فلقد عرفنا ان الرواة والباحثين يفضلون امرا القيس على سائر شعراء الجاهليين وزهير يرفعونه على النابغة او يجعلون بشارا راس طبقة المحدثين وابا نواس يفضلونه على مسلم ويفضلون الفرزدق على جرير ، كل ذلك باحكام عابرة ساذجة ناقصة قد تستهويك فتصدقها او لا ترضيك فتهملها او تمر بها مرا سريعا غير آبه لها ،، ولكن الامر مع ابي تمام مختلف كثيرا ، لانك تقرا صراعا وخصومة لا يمكنك ان تقف امامها وانت مشدود اليدين خاصة والمناهضة قائمة على تفضيل شاعر على آخر فربما كان ذلك بداية الكتابة بالادب المقارن .

وقد تثير هذه الخصومة وهذا الصراع استغرابك وربما دفعك ذلك الى ان تهتدي الى سر تلك الحملة فاحيلك اولا الى رواية ابي الفرج في الاغاني التي يقول فيها « ما كان احد من الشعراء يقدر ان ياخذ درهما بالشعر في حياة ابي تمام فلما

مات اقتسم الناس ما كان يأخذه »(٣٦) . ولم يكن عدد هؤلاء قليلا فابن رشيق في عمدته يخبرنا بانه « ليس في المولدين اشهر اسما من الحسن ابي نواس ثم حبيب والبحتري ويقال انهما اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد »(٣٧) .

اذن الحسد كان اول المتعصبين عليه ثم ماذا بعد ؟ كل من يتعصب للقديم ، اللغويون والاعراب وحملة الشعر القديم ، وهؤلاء ـ لاشك ـ يقفون دائما موقفا متشددا وعنيدا تجاه كل اثر وفكر جديد .

من هؤلاء اللغويين ابو عبدالله محمد بن زياد المعروف بابن الاعرابي والذي كان يتعصب على ابي تمام لا لشيء الا لانه من المحدثين ، فيحدثنا الصولي في اخباره ان ابن الاعرابي « وقف على المدائني فقال له الى اين يا ابا عبدالله ؟

فقال الى الذي هو كما قال الشاعر :

تحمل اشباحنا الى ملك
ناخذ من ماله ومن ادبه

ويقول الصولي انه تمثل بشعر ابي تمام وهو لا يدري ، ولعله لو درى ما تمثل به(٣٨) وهذه القصة تشبه الى حد كبير القصة التي رويتها سابقا والتي جرت بينه وبين الصبي الذي كان يؤدبه ، وقد استحسن ارجوزة ابي تمام والتي قراها له على انها لبعض شعراء هذيل والتي منها :

وعاذل عذلته في عذله
فظن اني جاهل من جهله

فلما علم بانها لابي تمام قال للصبي « خرّق خرّق »(٣٩)

وهذا ان دل على شيء فيدل على حماقة وافراط في العصبية على ابي تمام دون سبب علمي وجيه يستند عليه ، فهو يستجيده اولا ثم لا يوفيه حقه بعدئذ ..

واذا تركنا ابن الاعرابي من اللغويين الى دعبل الخزاعي من الشعراء لوجدناه يثلبه ويضع عليه الاخبار وينسبه الى سرقة معاني الشعراء : يخبرنا الصولي في اخبار ابي تمام ان علي بن الجهم ـ وهو العالم بالشعر ـ ما ذكر امامه دعبل الخزاعي الا لعنه وكفره وطعن عليه اشياء من شعره « لانه كان يكذب على ابي تمام ويضع عليه الاخبار ووالله ما كان اليه ، ولا مقاربا له »(٤٠) .

ويروي لنا الصولي ايضا ان دعبلا كان في حلقة ذكر فيها ابو تمام فقال : « كان ابو تمام يتبع معاني فيأخذها ، فقال له رجل في مجلسه ، ما من ذاك اعزك الله ؟

قال دعبل :

ان امرا اسدى الي بشافع
اليه ويرجوالشكر مني لا حمق
شفيعك فاشكر في الحوائج انه
يصونك عن مكروهها وهو يخلق

قال له الرجل فكيف قال ابو تمام قال :

فلقيت بين يديك حلو عطائه
ولقيت بين يديّ مر سؤاله
واذا امرؤ اسدى اليّ صنيعة
من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل احسن والله فقال دعبل : كذبت قبحك الله ، فقال والله لئن كان اخذ هذا المعنى وتبعته فما احسنت وان كان اخذه منك لقد اجاده فصار اولى به منك ـ فغضب دعبل وقام »(٤١) .

ونحن لا نكترث كثيرا لاراء دعبل الخزاعي الشاعر الغريب الاطوار الناقم على الناس جميعا لا يهمه سوى الثلب والنقد اللذين كلف بهما طيلة حياته هذا علما انه تراجع عن ثلبه لابي تمام بعد وفاته فقال عنه « رحمه الله لو ترك لي شيئا من شعره لقلت انه اشعر الناس »(٤٢) .

ومن المتعصبين على ابي تمام اسحاق بن ابراهيم الموصلي يخبرنا الصولي ان ابا تمام اجتمع مرة باسحاق الموصلي فاستمع له هذا عدة قصائد فاقبل عليه فقال « انت شاعر مجيد محسن كثير الاتكاء على نفسك »(٤٣) .

يريد انه يغوص على المعاني ويبتعد عن القديم ، وكان اسحق هذا شديد العصبية للاوائل كثير الاتباع لهم .

ولكن اشد المتحاملين عليه هو الآمدي في

---

(٣٦) الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ـ ج ٥ ص٩٨ .
(٣٧) العمدة لابن رشيق ـ ج١ ص٦٣ .
(٣٨) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ ص ١٧٧ .
(٣٩) اخبار ابي تمام ـ للصولي ص ١٧٥ .
(٤٠) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ ص ٦١ .
(٤١) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ ص ٦٤ .
(٤٢) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ ص ٢٠٢ .
(٤٣) اخبار ابي تمام ـ للصولي ـ ص ٧٩ .

موازنته بين الطائيين وسنتناول اراءه عندما نناقش المآخذ عليه ...

تناول النقاد شعر ابي تمام بحدة وغضب ، فنبشوه ورجموه بوابل من نفثات حقدهم حتى صوروه بانه وباء يصيب الذهن العربي ، ووضعوا الكتب لثلبه وانتقاص قيمته فلم نر خصومة نقدية قامت حول مذهب من المذاهب الشعرية كالتي التهبت حول مذهب أبي تمام وطريقته الشعرية، وهذا الامدي يعتبر ابرز مثل لهؤلاء النقاد الذين تستروا وراءالاصولية ، فعابوا شعره ورموهبالمروق والخروج على ما اصطلح عليه الجاهليون فشعره عنده « لا يشبه اشعار المتقدمين ولا على طريقتهم» او انه « زال عن النهج المعروف والسنن المألوف » «عدل عن مذاهب العرب » ماذا يعني هذا ؟ يعني ـ ببساطة ـ ان الآمدي لا يرى الا القديم ولا يؤمن ان الزمن والبيئة لهما تأثير كبير على الشاعر والشعراء ، وعلى الشاعر ان ينظم وفق قوالب واوامر تصدر اليه وكانه آلة تسير وفق ما يريدون لها ان تسير ، فيفصلون الشعر عن ارتباطه العضوي بالظروف المختلفة انه عندهم محاكاة للقديم وكلما كان الشاعر ملتصقا وثيق الالتصاق وشديده بامرىء القيس ورهطه كلما كان مجيدا وكلما اراد ان يجعل الشعر صورة حقيقية لظروفه وبيئته كان خارجا عما اسموه بعمود الشعر وبالتالي يجب رجمه وتسفيهه .. تماما كالذي حصل للشعر عند ظهور المدرسة الكلاسيكية في اعقاب عصر النهضة والتي فرضت علىالشعراء ان يقلدوا اسلافهم من اليونان والرومانوان ينهجوا نهجهم والا خرجوا على زمرة الشعراء ، فاصحاب العمود الشعري عندنا هم نفسهم اصحابالوحدات الثلاث ـ وحدة الزمان والمكان والموضوع ـ عند الغربيين ... وعرفنا كيف ماتت الكلاسيكية تحت ضربات الظروف والبيئة فنشأت على انقاضها وجئتها المدرسة الرومانتيكية بعد الثورة الفرنسية والتي طالبت بترك الرجوع الى اليونان والرومان وبجعل الادب ذاتيا بعد ان كان موضوعيا والتحرر من القوالب القديمة ، وعرفت هذهالحركة عندنا بالخروج على عمود الشعر او المدرسة البديعية ـ مدرسة بشار ومسلم وابي تمام وابن المعتز ـ والتي ظهرت هي الاخرى عقب الثورة العباسية ..

هذا وان محاكاة القدماء واحتذاء طريقتهم واستنباط معانيهم لا تعني بالضرورة جودة الشعر فالجودة ليست وقفا على متقدم او محدث، بل يجب ان نبحث عنها في الشعر ذاته وبصرف النظر عن قائله وزمانه . وثورة «ابن قتيبة» على المقلدين من اصحاب القديم تدل على فكر سليم ونظر صائب حيث يقول « ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا الى المتاخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت الفريقين بعين العدل واعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه فاني رايت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانهاو انه راى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره وكل شرف خارجيا في اوله فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : كثر هذا المحدث وحسن حتىهممتبروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندما بعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمي والعتابي والحسن بن هانيء واشباههم فكل من اتى بحسن من قول او فعل ذكرناه له واثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تاخر قائله او فاعله ولا حداثة سنه ، كما ان الرديء اذا اورد علينا للمتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »(٤٤) .

فشعر أبي تمام ينبغي الا يعاب لانه ابتعد عن طريقة القدماء وعما اصطلحوا عليه ، خاصة وهو يعيش امتدادا لثورة تجديدية لا يمكنه تخطيها يضاف الى ذلك خصائص فذة يتميز بها كالذكاء الحاد النادر والثقافة الفلسفية والفنية الواسعة والتي جعلته يبتعد كثيرا عن اطر القدامى وعقلياتهم هذا وان الادب ـ كما هو معروف ـ خاضع لكل ما تخضع له الملكات الفنية من تأثير البيئة والمجتمع والزمان وما الى ذلك من المؤثرات الاخرى ، لانه مرآة لنفس صاحبه وعصره وبيئته وهو بحكم هذا متطور قابل للتجديد « اذننستطيع ان نفهم في سهولة ان يكون فيه قديم وجديد وان يكون بين اصحابه انصار للقديم وانصار للجديد يأتي ذلك من انه يتصل بمزاج الاديب ونحن نعلم

(٤٤) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ص ٥ـ٦ .

ان الناس كانوا وسيظلون ابدا منقسمين في حيانهم وشعورهم الى محافظين ومجددين ومعتدلين ، اولئك يقلدون وهؤلاء يجددون والاخرون يتوسطون بين اولئك وهؤلاء »(٤٥) .

واذا تركنا ناحية عدم محاكاته للاقدمين ومجاراته لهم ياخذ بعض النقاد علي ابي تمام خروجه (ثانيا) الى التعقيد والغموض في الشعر وهيامه بالغريب من المعاني « المقتسرة المأخوذة بعنف » فهو لا يأتي « باللفظ المعتاد والمستعمل في مثله »(٤٦) .

وهو بالتالي خارج عما اصطلحوا على تسميته بعمود الشعر(٤٧) .

انا لا انكر ان ابا تمام كان هياما بالغريب من المعاني والتي يحتاج في فهمها الى تأمل ومشقة فهو يغطي مقاصده بشيء من الابهام وقد يقف المطلع على ديوانه حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه حتى « اذا راضت نفسه له بالدرس والتفكير راى فيها ما يلذه من صور جميلة ومعان رشيقة » .

والشعر ـ كما هو معروف ـ لا يمكن ان يكون كالكلام المألوف المتداول فلماذا نجفل كثيرا من الغموض والتعقيد فيه ؟. لقد تفهم بعض النقاد القدامى هذه الناحية وعالجوها بموضوعية نادرة وتبنوا الموقف الشعري الذي وقفه ابو تمام ودافعوا عنه من هؤلاء ابو اسحاق الصابي الذي راى في غموض الشعر قيمة اساسية تميزه عن النثر فيقول « ان طريق الاحسان في منثور الكلام يخالف طريق الاحسان في منظومه لان الترسل هو ما وضح معناه واعطاك سماعه في اول وهلة ما تضمنته الفاظه ، وافخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه الا بعد مماطلة فيه »(٤٨) .

والشعر عند الجرجاني لابد ان يركبه الغموض لانه « ليس في الارض بيت من ابيات المعاني لقديم او محدث الا ومعناه غامض مستتر ولولا ذلك لم تكن الا كفيرها من الشعر ولم تفرد فيها الكتب والمصنفات »(٤٩) .

او هو كما قال پول ڤاليري « الكلام الذي يراد منه ان يحتمل من المعاني ومن الموسيقى اكثر مما يحتمل الكلام العادي والشاعر المجيد حقا يمتاز من غير المجيد بانه اذا تحدث اليك لم يمكنك من ان تسير مع نفسك وانما يضطرك ان تفكر وان تجهد نفسك في ان تفهمه وتحسه وتشعر به « وابو تمام تنطبق عليه هذه الاوصاف فشعره عميق يحتاج قارئه الى ان يتروى فيه ويتأمل ويتابع الشاعر في افكاره ليفهم مراده » .

من تفاصيل ما قدمت يظهر ان التعقيد والغموض في الشعر امر مألوف ثم هو ليس وقفا على ابي تمام وحده بل عام في الشعر كما اخبرنا الجرجاني خاصة ، ومن اجل هذا يجب ان نغفر للشعراء كثيرا مما يظهر في شعرهم من اغراب وغموض لانه « لو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب الا يرى لابي تمام بيت واحد فانا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت او بيتين من التعقيد والغموض(٥٠) .

لقد كلف ابو تمام بتقصي المعاني والغوص الى اعماقها وذلك بتشجيع من حالة عصره العقلية التي نقلت الفلسفة والمنطق اليوناني والتي درسها بشغف عميق وافاد منها ثقافة لم تتيسر لغيره من ادباء العرب السابقين فلم ينهلوا من ينابيعها وظهرت آثار تلك الثقافة بارزة في شعره فكثرت المعاني الجديدة والادلة العقلية بل اصبح استنباط المعاني وتوليدها واختراعها من اميز صفات ابي تمام فهو قلما ينقاد في نظمه الى ايحاءات عابرة او يرضى بالمعاني المطروقة الصادرة من خواطر بديهية وهذا اهله لفرض زعامته على عصره ومعاصريه فرضا والا فما فضله كصاحب مذهب وطريقة اقتدى بها من جاء بعده ان كان يحرك لسانه بما انتجته قرائح من سبقوه وكيف يعتبر مبدعا اذا لم يأت « بالمعنى المستظرف والذي لم تجر العادة بمثله »(٥١) . وماذا يضيره بعد ذلك اذا عد خارجا على عمود الشعر ؟ سيما وان ابا تمام قد خلق ليكون شاعرا كالذي يصفه ابن رشيق في عمدته « أنما سمي الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لم يشعر به غيره فاذا لم يكن عنده توليد معنى ولا اختراعه او صرف معنى عن وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم

---

(٤٥) في الادب الجاهلي ـ طه حسين ـ ص ٣٤ .
(٤٦) الموازنة ـ الآمدي ـ ص ٣٩١ .
(٤٧) والعمود عند منظور غير واضح فهو يقول ان ابا تمام لم يخرج الا على عمود الشعر ومعنى العمود عندهم ـ فيما يبدو ـ هو الصياغة (النقد المنهجي عند العرب ، ص٦٨)
(٤٨) المثل السائر ـ ابن الاثير ـ ج٢ ص٤١٤ .
(٤٩) الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ للقاضي الجرجاني ، ص٤٣١
(٥٠) الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ للقاضي الجرجاني ص٤٣٢ .
(٥١) العمدة ـ ابن رشيق ـ ج٢ ص١٧٧ .

يكن له الا فضل الوزن وليس بفضل عندي ، انما السبق والشرف للمعنى »(٥٢) .

لم تبرز ظاهرة المعاني وتعقيدها وتوليدها واختراعها في شعر شاعر عربي بروزها في شعر ابي تمام لما اثاره من ضجة في صفوف النقاد فقسم تعصب عليه واكثر من تجريحه ولومه وقسم تعصب له فاكبره ونزهه عن الخطأ وآخرون انصفوه من هؤلاء ابو الفرج صاحب الاغاني « ابو تمام لطيف النفطنة دقيق المعاني غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره »(٥٣) .

اما ابن رشيق صاحب العمدة فيروى لنا ان « اكثر المولدين معاني وتوليدا ـ فيما ذكره العلماء ـ ابو تمام غير ان القاسم بن مهرويه قد زعم ان جميع ما لابي تمام من المعاني ثلاثة »(٥٤) .

فيما نجد صاحب المثل السائر يجعلها اكثر من عشرين معنى فيقول « ان ابا تمام اكثر الشعراء المتاخرين ابتداعا للمعاني وقد عدت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى، واهل الصناعة يكبرون ذلك وما هذا من مثل ابي تمام بكبير »(٥٥) .

حتى الآمدي على ما فيه من تحامل عليه وتعصب ضده يقر له بسعة اطلاعه وطول باعه فى التوليد واختراع المعاني الجديدة « وجدت اهل البصرة من اصحاب البحتري ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه لا يدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ورقيقها والابداع والاغراب والاستنباط لها »(٥٦) .

ونسوق اخيرا رأى الصولي وهو من المتعصبين له فيعده « راس في الشعر مبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه ، حتى قيل مذهب الطائي ، وكل حاذق بعده ينسب اليه ويقفي اثره، وقد كان الشعراء قبل ابي تمام يبدعون في البيت او البيتين وابو تمام يبدع في اكثر شعره »(٥٧) .

وما دام ابو تمام غواص معان وصائد توليد واختراع فهو متكلف غير مطبوع والمتكلف « هو الذي يهذب شعره وينقحه بطول التفتيش ويعيد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة والمطبوع من جاء الشعر عن اسماح وطبع وغريزة »(٥٨) .

وابن قتيبة هو الذي قسم الشعراء الى مطبوعين ومتكلفين في كتابه « الشعر والشعراء » واعطى امارات للشاعر المتكلف يحسها القارىء فى نصوصه ويقدر ما بذل المنشيء من تفكير طويل ومعاناة شديدة ومقدار ما تصيب من جبينه من عرق ، وعما اذا كان القاريء يحس بمشاق وصعوبات كتلك التي يحسها وهو يرتقي جبلا او يحمل صخورا ، الى غير ذلك من المتاعب كالاكثار من الضرورات الشعرية مثلا فهو يعدها من التكلف في الشعر ولكنه لم يعط امارات الشاعر المطبوع ويظهر من كلامه انه يجعل الطبع في انشعر مقابل معنى الارتجال والشاعر المطبوع يقرب من المرتجل وقد يقصره عليه لان هذا يقول الشعر على البديهة دون اعداد « فمن اعد شعره ونقحه كان متكلفا ، وتلك مجاوزة للواقع والانصاف فالشعر صناعة ككل الصناعات تحتاج الى مران واعداد وقلما يكون الشعر المرتجل قويا رائعا»(٥٩) .. ولابد للشعر الجيد من تفكير ومعاناة وجهد يختلف بسعة وشمولية من شاعر لآخر كل حسب ثقافته واطلاعه ودقة نظره ، ثم لماذا نستسيغ هذا التقسيم ؟ ومن يدلنا على شاعر لم ينقح شعره وينخله وهو الذي يعتبر اول ناقد لنصه ؟ ثم ما المعيار الذي جعل الشعراء المطبوعين ـ على تعريفهم ـ يختلفون اصالة وجودة وطبقة وما الاساس الحكمي في ذلك ؟.

والصواب ـ عندي ـ في كل ذلك ان معيار الشعر ليس التكلف والطبع وبالمفهوم الذي يحدده لنا ابن قتيبة انما الميزان فى ذلك هو اللفظ والمعنى ومشاكلتهما او مطابقة المعنى والمبنى او الشكل والمضمون فكلما كانا متقاربين وكان ارتباطهما العضوي مع بعضهما وثيقا كان النص جيدا وصاحبه موفقا سواء اكان هذا قديما ام محدثا وبصرف النظر عن نهجه اكان من اهل البديع او من الملتزمين بعمود الشعر .. ثم من يستطيع ان يدلنا على شاعر تكلف كل شعره او كان مطبوعا في كله ، هو فنان يرقى مرة ويهبط في اخرى يجيد ويسقط حتى من تعصب على ابي تمام لا يقول

(٥٢) العمدة ـ ابن رشيق ـ ج٢ ص١١٦ .
(٥٣) الاغاني ـ ابو الفرج الاصبهاني ـ ج١٥ ص٢٤٥ .
(٥٤) العمدة ج٢ ص٢٤٤ .
(٥٥) المثل السائر ـ ابن الاثير ـ ج١ ص٣٢٢ .
(٥٦) الموازنة ـ الآمدي ـ ص ١٥ .
(٥٧) اخبار ابي تمام ص ٣٨ .
(٥٨) تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ طه احمد ابراهيم ـ ص ١٢٥ .
(٥٩) تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ طه احمد ابراهيم ـ ص ١٢٦ .

بان كل شعره تكلف فهم يثبتون ابياتا سقط فيها وتكلف وفي اغلب شعره مطبوع غير متكلف ـ على حد تعبيرهم ـ بل جاء على غير ما انفوه ، فهل حينئذ يكون الشاعر متكلفا في جانب ومطبوعا في آخر ؟ لا ارى ذلك ، الميزان والحكم هو الشكل والمضمون لانهما كل شيء فى الشعر فان سقطا سقط حتى من يسمونهم بالمطبوعين من الشعراء نجد عندهم الغث الفاسد والمتين الجيد ...

فاخراج ابي تمام من مدرسة المطبوعين لانه كان يميل الى التعقيد ويسرف في استعمال البديع والذي كان سمة عصره وزيه أو لان جبينه يرشح ويتقعر في معانيه امر لا نقرهم عليه ..

من ذلك زعمهم ، ان ابا العميثل كاتب ومربى اولاد عبدالله بن طاهر امير خراسان قال له عندما القى في حضرة الاخير قصيدته التي مطلعها :

اهن عوادي يوسف وصواحبه
فعزما فقدما ادرك السؤل طالبه(٦٠)

لماذا لا تقول ما يفهم يا ابا تمام ؟ فاجابه على البديهة ولم لا تفهم ما يقال .

وزعموا ان مطلعها معقد غير مفهوم فعسر فهمه على ابي العميثل و « انما اعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه هو »(٦١) .

علما اني تعقبت هذه القصة في مصادر عديدة لم اعثر على اصل واحد لها فتروى بشكل متناقض ، فقسم من الرواة يقولون انها عرضت على كاتبين لعبدالله بن طاهر وليس لابي العميثل وحده ، والصولي يخبرنا ان من قال ذلك هو شخص في غير هذه المناسبة ولم يخبرنا عن اسمه ويزيد بان علاقته مع ابي العميثل جيدة وان هذا كان وسيطه عند الامير اذا ابطأ في صلته وعطائه(٦٢) ، كما ان مجلس الامير كان مزدحما بالشعراء ساعة القائه تلك القصيدة حتى اذا بلغ قوله :

وقلقل نأي من خراسان جاشها
فقلت اطمئني انضر الروض عازبه

وقوله :

رعته الفيافي بعدما كان حقبة
رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

صاح من في المجلس من الشعراء ما يستحق مثل هذا الشعر آلا الامير اعزه الله وقال شاعر منهم يعرف بالرياحي لي عند الامير جائزة وعدني بها وهي له جزاء عن قوله فقال الامير بل نضاعفها لك ونقوم بالواجب له »(٦٣) .

فشعر يستجيده كل هؤلاء القوم وشاعر يتنازل عن جائزته لصاحبه لا يمكن ان يكون معقدا وغير مفهوم ، ان هي الا فرية افتراها الآمدي عليه فنشرها ، وهي على فرض صحتها تعني أن ابا تمام لم يكن يهمه ان يفهم الناس شعره او لا يفهموه او على القارىء ان يرقى الى الشاعر وليس على الشاعر ان يقدم للقاريء افكارا باسلوب يعرفه الجميع ، خاصة وان المعاني التي جاء بها الاقدمون في المديح والرثاء والهجاء وغيرها من الاغراض الشعرية كادت تنضب وجيء على اكثرها « فالمجال ضيق عليهم والابواب مغلقة في وجوههم واينما اتجهوا وجدوا القدماء قد عبدوا القول وذللوه واتوا على كل مافيه فاعتقدوا او اعتقد اكثرهم ان المعاني نضبت وان لا فضل فيها وأهم شيء فى الشعر هو الصياغة »(٦٤) . فجانسوا وطابقوا واستعاروا استعارات بعيدة واغربوا في التصوير كل ذلك للاتيان بمعان جديدة غير مطروقة .

ولا شك ان اغراب ابي تمام في المعاني عموما تبعه ميل نحو التشبيه العميق والاستعارة البعيدة واخرجه ذلك الى الاكثار من التشخيص او التجسيم أو ما يسميه صاحب الموازنة خروجه « الى المحال » فعاب عليه قوله :

رقيق حواشي الحلم حتى لو انه
بكفيك ما ماريت فى انه برد

فانكر صورة الحلم بالكفين وتشبيهه بالبرد وانما كانوا يشبهون الحلم بالجبال في مثل هذا البيت :

احلامنا تزن الجبال رزانة
وتخالنا جنا اذا ما نجهل

فالرجل الحليم هو الثقيل اما هذا الحلم الذي يوصف بانه رقيق الحواشي فامر لم تعرفه العرب .. مرة اخرى ندعو النقاد الى تفهم طبيعة ابي تمام وعقليته فهو حضري يمدح الخليفة والوزير وهؤلاء لا يستحسنون منه « ان

---

(٦٠) يقول : النساء اللواتي عذلنني ليس لهن راى « هن عوادى يوسف » اى صوارف يوسف الى ما صار اليه يقول : فاتركهن وامض على عزمك . « شرح الصولى » ص ١١٥ .
(٦١) الموازنة ـ للآمدى ـ ص ٩ .
(٦٢) يراجع اخبار ابى تمام ص ٢٢٣ وما بعدها .
(٦٣) يراجع اخبار ابى تمام ص ٢٢٣ وما بعدها .
(٦٤) تاريخ النقد الادبى عند العرب ـ طه احمد ابراهيم ـ ص ٩٧ .

يجعل لهم رزانة هؤلاء الاعراب التي تزن الجبال. فالحلم في بغـــداد في القرن الثـــالث غـيره في البصرة وفي القرن الاول »(٦٥) ، وليس غريبـــا ان يكون حلم المتحضرين رقيق الحواشي امـــا (لو ان حلمه بكفيك) فهذا غريب ولكن (اية قيمة للشاعر المبتكر اذا لم يستطع ان يخترع لك مـــن الصور ما يبهرك ويضطرك الى ان تعجب بهـــذه الصور الجديدة »(٦٥) .

واخذوا عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعذبت ماء بكائي

قالوا : مـــا معنى مـــاء المـــلام ؟ ربمـــا كـــان تساؤلهم مقبولا ولكن هذه الصورة مألوفة ومطروقة فقد وردت في شعر القدامى ، فلماذا لا يـــلام من سبقه . قال ذو الرمة :

اان ترسمت من خرقاء منزلة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم

ولماذا لم يعيبوا قول ابن السكيت وهو احد علماء النحو وتلميذ ابن الاعرابي :

قد قلت اذ ماء صباك يرعش
واذ اهاضيب الشـــباب تبغش

وقول ابن ابي ربيعة :

وهي مكنـــونة تحير منها
في اديم الخدين ماء الشـــباب

وقول عبدالصمد (وهو شاعر عباسي بصري المولد والمنشأ) :

اي ماء لماء وجهـــك يبقـى
بعد ذل الهوى وذل الســـؤال ؟

ويدافع الصولي عن ابي تمام فيقول « فمـا يكون ان استعار ابو تمام من هذا كلـه حرفـــا فجاء به في صدر بيته لما قال من آخره « فانني صب قد استعذبت ماء بكائي » قال في اولـه « لا تسقني ماء الملام » وقد تحمل العرب اللفظ علـى اللفظ فيما لا يستوى معناه قال الله جل وعـز « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والسيئة الثانيـة ليست بسيئة لانها مجازة ، ولكنه لما قال : وجزاء سيئة قال : سيئة فحمل اللفظ على اللفظ وكذلك « ومكروا ومكر الله » وكذلك « فبشرهم بعذاب اليم » لما قال بشر هؤلاء بالجنة قال بشر هـــؤلاء بالعذاب ، والبشارة انما تكون في الخير لا في الشر، فحمل اللفظ على اللفظ)(٦٦) .

وعاب عليه ابن الخثعمي الشاعر قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتـدى
خطوب يكاد الدهر منهن يصرع

قال ايصرع الدهر ؟. يرده الصولي بقول بشار

وما كنت الا كالزمان اذا صحا
صحوت ، وان ماق الزمان اموق

واخذوا عليـــه استعارته وتشـخيصه الغريب :

فضربت الشتاء في اخـــدعيه
ضربة غادرته قودا ركوبـــا

فجعل للشتاء اخدعين « وهما عرقا العنق في الانسان » وقالوا كيف يصور الشتاء بعيـــرا صعبا وقد ركبه الممدوح وضربه ضربة شديدة في اخدعيه فذل وأطاع . وهو يشبه خلخال المـــراة بالوشاح :

من الغيد لو ان الخلاخل صورت
لها وشحا جارت عليها الخلاخل

فانكر الآمدي ان يكون الخلخـال وشـــاحا لان « هذا الجسم الذي يتخذ الخلخال وشاحا هو اشبه بجسم الجمل » .

ثم هو يقول عن الفرقة بانها اسرت قلبا وهذا غير جائز فالقلب يأسره الحب لا الفراق ، وجعـل المجد مما يحقد عليه الخوف وان لـــه جســدا وكبدا وجعل للامن فرشا ، ويعلق الآمدي علـــى هذه فيقول ان ذلك « ضد ما نطقت العرب » وهي « هي استعارات في غاية القباحة والهجانة والبعد عن الصواب وانما استعارات العرب المعنى لمـــا ليس له اذا كان يقاربه او يدانيه او يشـــبهه في بعض احواله او كان سببا من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه »(٦٧) .

مرة اخرى اقول ان ابا تمام لم يحـدث هذه الصيغ احداثا فقد سبقوه اليها وكان له فضـــل الاكثار والاغراق ، فنحن نجدها مبثوثة في القرآن الكريـم وفي شـــعر الاوائـل مـــن الجاهليين والاسلاميين .

نسوق امثلة من الاســتعارات العميقـــة والبعيدة والتي تميل الـى التشخيص والتجسـيم ضمن كتاب الله ، منها قوله تعالى « هو الذي انزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات هن ام الكتاب»او قوله «يأتيهم عذاب يوم عقيم» وقوله «واشتعل الراس

(٦٥) من حديث الشعر والنثر ـ طه حسين ـ ص ١٧٤-١٧٥ .
(٦٦) اخبار ابى تمام ـ الصولى ص ٣٥-٣٦ .
(٦٧) الموازنة للآمدى ـ ص ٢٣٥ .

شيبا » وقوله « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقوله « ولما سكت عن موسى الغضب » وقوله « سمعوا لها شهيقا وهو تفور تكاد تميز من الغيظ » « يا ارض ابلعي ماءك » وغير ذلك كثير لو تقصيناه لطال بنا الحديث ، ونجد ذلك ايضا في اقوال الرسول ذلك من حديثه (ص) « تمسحوا بالارض فانها لكم برة » قال ابو عبيدة يريد انها منها خلقهم ومنها معادهم وهي بعد الموت كفاتهم ، وقوله(ص) « تقبل توبتي واغسل حوبتي » .

واذا انتقلنا الى شعر الاقدمين فنجد اناشيدهم في هذا الباب كثيرة من ذلك قول امرىء القيس يصف الليل :

وليل كموج البحر ارخى سدوله
علي بانواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
واردف اعجازا ونآء بكلكل

فجعل لليل سدولا يرخيها ـ اي الستور ـ وصلبا يتمطى به واعجازا يردفها وكلكلا ينوء به .

ومنه قول طفيل الغنوي :

فوضعت رحلي فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرحل

فجعل شحم السنام قوتا للرحل ...

ومنها قول قريط بن انيف صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

منها قوله :

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم
طاروا اليه زرافات ووحدانا

فالتشخيص واضح هنا فقد جعل الشر انسانا له نواجذ وهو من الاستعارات البديعية حتى ان الدكتور زكي مبارك يرى ان جمال البيت وطرافته راجع الى كلمة « ابدي ناجذيه » وكلمة « طاروا » و « وهاتان ليستا كلمتين وانما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق»(٦٨).

اذن ليس العيب في الاستعارة والاكثار منها والميل الى التشخيص ولكن العبرة في الاجادة في ذلك فالاغراب فى التصوير والدقةفيالمعاني امران الفهما العصر العباسي ، فالغلو والمبالغة تركا اثرا في التصوير فعظم الفارق بين الحقيقة التي يتحدث عنها الشاعر والصورة التي يعرضها .

فاذا كان امرؤ القيس يقف في تصويره عند الحدود الظاهرية الحسية لسذاجة فكره ولكونه يعيش في عصر يمثل مرحلة اولية من مراحل نمو الفكر الانساني ، فابو تمام مفكر يركب اجنحة الخيال ويبتعد كثيرا عن ارضنا وسمائنا ، ليأتينا بالصورة الجميلة المبتكرة والبعيدة عن سذاجة التفكير السطحي والا فما الفرق بين ما يأتيه العالم المثقف والامي الساذج ...

---

(٦٨) النثر الفني في القرن الرابع ـ د . زكي مبارك ـ ج ٢ ص ٦٨ .